الغريق

للأستاذ محمود الخفيف

كانت شجرة التوت الكبيرة التى تقوم على رأس حقلنا منذ عشرات السنين مقيلنا من حر الصيف ، نأوى إليها إذا اشتد القيظ فنقضى النهار فى ظلها الوارف السابغ ، ولا نعود إلى القرية إلا فى ضوء القمر أو فى لمح الشفق . كان ذلك دأبنا طيلة عطلة الصيف لا نمل هذه الدوحة ، بل لا نطيق أن ينصرم أسبوع دون أن نقضى يوماً إلى جانبها ؛ هنالك حيث كنا ننعم بذلك الهواء الطرى الرخى الذى تستروح النفوس نسيمه فى أشهر الحر ولا تصيبه إلا فى ظل سرحة فيناعة كتلك السرحة ، امتد من حولها الفضاء وانبسطت الأرض

على قيد خطوات من تلك الشجرة الوارفة الظل يجرى ترعة من تلك الترع الكبيرة التى تنساب فى الدلتا زاخرة فى الصيف بذلك الفيض الذى يحمله النهر العظيم من تلال الحبشة فيملأ به الترع والغدران فتجيش فى أنحاء الوادى بالقوة وتفيض على أرضه الخصب والرى

وعلى مقربة من تلك الشجرة تقع العين على كوخ متواضع ، يستقبل الشمس إذا طلعت ، أقيم من اللبن منذ ثلاثين عاما أو تزيد ؛ ينعقد على رأسه سجاف قصير من تلك الأقراص التى يتخذها الفلاحون من روث الماشية ، كأنما أريد به أن يزيد هامته بعض الطول ، أو يكسب جبهته شيئاً من الزينة . ولقد عبثت يد الزمن بتلك الأقراص فتآكلت جوانبها ، وبتلك الجبهة الضيقة فتشققت حتى لتبدو شقوقها كأنها الغضون فى رأس جلله الشيب وجمدته السنون . على أن ذلك الكوخ على ضمته كانت تفيض عليه بساطة من الروح والهدوء تجعل الأفئدة تهوى إليه ، وتصبو إلى المعيشة القريرة الساكنة فى جواره

فى ذلك الكوخ الضيق يسكن (طالب) البدوى وامرأته ، وابناهما حنظل وراغب ، وبناتهما شرود ، وعزة ، وشماء ، على أنهم لا يقضون تحت سقفه إلا ليالى الشتاء ؛ أما فى النهار فلهم مضطرب واسع ومتنفس فسيح فى ذلك الفضاء المحيط بهم ؛ وأما فى الصيف فلم يكن ثمة من سقف يعلوهم سوى تلك القبة الزرقاء تزينها مصابيحها اللامعة المتناثرة

أو ينيرها القمر المتلألىء الوضاح

كان شيخ العرب وهذا هو اسمه الذى اعتادته الألسن يقوم على حراسة « الوابور » القائم إلى جوار كوخه ، فى بناء لم يتخذ من اللبن كما اتخذ الكوخ ، بل من الآجر المتين ؛ وكان شيخ العرب من أولئك الأعراب الذين يتجعون الرزق فى قرى مصر ، فلما جىء بذلك « الوابور » أقيم على حراسته بأجر معين . وهو إلى ذلك يرعى الأغنام ويتخذ من أصوافها ومن لبنها أثاثاً وطعاماً ، كما يصيب من بيع صغارها بعض المال

* * *

حللنا ذات صباح ذلك المقيل الحبيب تحت هاتيك الشجرة ولم يبد من الشمس إلا نصف وجهها ، فأخذ بعض الرفاق من بنى العم يبحثون فيما ألقينا على الأرض من متاع ليهيئوا لنا الطعام وقد أحسسنا الجوع بعد سير ساعة ، وتحلقنا على حصير حول الطعام ، فأكلنا فى شهية كادت تصل إلى الشره ، وكانت نفوس الرفاق جميعاً تفيض بالمرح والبهجة ، يزيدهم انتعاشاً نسيم الصباح الجميل الوانى ، كما كان كل شىء حولنا ينبىء بأننا سنقضى يوماً سعيداً

وأقبل شيخ العرب ، وكان قد ذهب مبكراً فى بعض شأنه إلى عزبة على بك وهى تقع غير بعيد على الضفة الأخرى للترعة ! ودعوناه إلى الطعام فأصاب منه يسيراً . ولما فرغنا انصرف الرفاق إلى ماعتادوا من لهو ، فبعضهم ذهب يصيد السمك ، وتأهب البعض للعب النرد ، وكانوا قد جاءوا معهم بصندوقه ، وبسط البعض كومة من التراب ثم خططوها وهيأوها للعب « السيجة » . أما شيخ العرب فقد أسند ظهره إلى جذع الشجرة وجلس يدخن وهو مطرق كأن به هماً . وجلست إلى جانبه أحادثه وأداعبه كعادتى ، فسألته استبطان دخيلة نفسه :

— ماحال إبراهيم اليوم يا شيخ العرب ؟

— ما زال على حاله من الغضب والعنف ، لا يسكت لسانه ، ولا تهدأ ثورته . يهدد ويتوعد ، ويقسم الايمان على تنفيذ ما اعتزم ، على الرغم من نصحنا له وزجرنا إياه

* * *

كان إبراهيم هذا شريكا لشيخ العرب فى بعض غنماته ، توشجت بينهما أسباب المودة ، وتوثقت روابط الألفة ، وأحبه شيخ العرب حباً شديداً ولا سيما بعد أن خطب إليه ابنته عن . كان فتى فى نهاية العقد الثالث من سنى عمره ، طويل القامة فى غير إسراف ، ريان البدن فى غير امتلاء ، مفتول العضل ، وسيم المحيا ، يرف فى مقدمة فوديه وثم عصفورين باسطى الجناح ، تزداد زرقة لونهما وضوحا فى تلك الحمرة التى أشرب بها وجهه الوضىء الأباج . تلمح نبل نفسه فى عينيه الواسعتين الجميلتين اللتين كانتا مضرب المثل فى حدة البصر ، وتتبين قوة عزمه وإباء طبعه فى أنفه الطويل الأشم وشاربه المرهف المبروم ، كما تلمس صرامته وجرأة قلبه فى سداد نظراته ولهجة حديثه وإشارة يديه . ينظر إليه النساء والبنات نظرة الصبابة والاعجاب ، ويرمقه الرجال معجبين بفتوته وخفة حركته وروعة قوامه ؛ وهو إلى ذلك ماهر اليد ذكى الفؤاد فى كل ما يطلب إليه من عمل ؛ يغزل الصوف فى سرعة عجيبة وإتقان مدهش ، وينسجه رقماً جميلة النقش بهيجة الألوان ، خبير بالنماج يميز الجيدة منها لأول نظرة ، خبير بما يصيب الغنمات من علل ، بصير بما يلزمها من علاج أو جبيرة ؛ يقظ فى السوق لا يخدع فى شراء ولا

يغنى فى بيع ؛ يشارك الفلاحين فى أعمالهم وهو ذلك الراعى فيحملهم على الاعجاب به والاعتراف له بالتفوق ، فخطوطه فى زراعة القطن كأنها ضربت على خيط ، وآراؤه فى السماد والبزور وأوقات الزرع والحصاد آراء الخبير المجرب ؛ هذا إلى ذهن فطن ، وعقل مبتكر ، يفهم ما يلقى إليه أول مرة فى سرعة ويسر ؛ وتراه إلى جانب ذلك كله المقدم المتفوق فى اللهو واللعب ؛ ينازل الرفاق فى لعبة السيجة فيظهر عليهم ويسخر منهم ويلعب « الحطب » فلا تخطىء يده ولا تكل عصاه ، ويغنى فى الأرغول أناشيد حماسية تبعث فى قلوب خلانه الطرب والقوة

تمثل له فى عز طيف أحلامه وصورة خياله فأسلم لها قلبه وأساس قياده ؛ يرى فيها ما لا تراه عيناه فى غيرها من بنات العرب ، فمحياها الجميل الصبوح فتنة ناظريه ، وعيناها الضاحكتان الدعجاوان بهجة فؤاده ، وقوامها المرهف الرشيق متعة روحه ، وحبها الذى تسكبه على قلبه فى حرارة وقوة هناءة نفسه ونعيم حياته . يرى فى اتزان خطواتها وسرعة التفاتاتها صورة من نزوع نفسه وتوثب همته ، ويحس فى حذقها ومهارة كفيها ظلاً من مهارته وكفايته ، ثم يرى فى رفق حديثها وهدوء طبعها ما يعوزه من رفق وهدوء ، وما تتوق إليه نفسه من سكينة واطمئنان . على أن أهم ما يسمو بها فى عينه طهرها الذى جمعت به بين بأس الرجال ونعومة الأبكار ، والذى جعلها كالوردة فى أعلى الغصن تأخذها العين قبل غيرها ولكن يحول دون الوصول إليها علوها أولاً ، ثم ما يحيط بها هناك من أشواك

يرعى غنماته فى الأرض الفضاء ؛ فيراها عن بعد وسط غنماتها وحدها أو صحبة حنظل أو مع أمها أو إحدى شقيقتيها فيعرفها قلبه ، قبل أن ينفذ إليها بصره الحديد ؛ ولا تنسى هى إذا خرجت ترعى الغنم فى متوع النهار أن تلف خصرها الدقيق بحزامها الأحمر الذى غزله بنانه ونسجته كفه ، ولا تحمل معها غير ذلك العود من شجر اللوز الذى أهداه ابراهيم يوماً إلى أبيها . وهو يتبعها ببصره أينما اتجهت ، حتى إذا اشتد وهج الظهيرة أوى إلى شجرة فجلسا يطعمان مما حملا معهما من زاد

* * *

كان من أبهج الأيام عندنا أن يكون معنا ابراهيم ، إذ كان يتيح لنا لعبه السيجة مع شيخ العرب فرجة ممتعة ، كما كنا نطالب إليه بعض المواويل فنصغى إلى حديث قلبه وخلجات نفسه يفيض بها لحنه الفتى ، ويرسلها فى الفضاء صوته القوى ، ولكننا لم نجده هناك تلك المرة ، كما لم نجده فى المرة السالفة

كان آخر مرة لقيته ثائرا لايقر ، مغيظاً محنقاً كأنه فى ثورته النمر المزمجر المهتاج ، وقد اختفى فيه ذلك الانسان الباش الرزين . ففز من مكانه كالسهم إذا انطلق فواجه أخته وكانت لدى باب الكوخ تتحدث إلى عز ، فحملق برهة فى وجهها الذى سرت فيه صفرة كأنها صفرة الموت ، ثم بصق فى هذا الوجه وهو يكاد يتميز من الغيظ ؛ يحبس لسانه لكيلا ينطق أمامنا بما لا يليق من فحش القول ، وهو يحرق الأرض ، وينبعث من عينيه بريق الشر والمقت ، ولولا نظرة ملامة من عز خففت حدته وردت وثبته لحطم بيديه رأس أخته التى كانت تنتفض أمامه انتفاض العصفور باغته الصقر ، أو الصبى صور له خياله أنه بين يدى شيطان ؛ ثم التقط عصاه واتخذ سبيله مبتعداً عنا دون تحية أو التفاتة ، وهو يتوعد ويؤكد الأيمان

وظلت أخته فى مكانها لدى الباب واجمة أول الأمر ثم مالبثت أن عاودها هدوؤها ، وانبسطت أساريرها كأن لم يكن هناك شىء ؟ ولعلها أرادت بذلك السكون أن تتظاهر أمامنا أن الأمر هين وأن ما يغضب أخاها لا يستحق كل هاتيك الثورة ؛ بيد أنه لم يكن سكوناً متكلفاً يحجب وراءه اضطراباً أو إشفاقاً ، فلقد هالتنا فى عينيها نظرات جريئة غريبة ، نظرات من يحس أنه فى موقف العار والخزى ولكنه لا يستشعر ذلك الخزى ، ولا يرى مكان الخجل من محياه إلا التبجح البادم الذى يدل على أنه يحس كل شىء ولكنه لا يبالى بشىء

* * *

كانت « سكينة » وهذا هو اسمها فارهة الجمال رائعة المحاسن ، لطيفة التكوين تحس هذا الجمال وتدرك بغريزتها مدى أثره فى نفوس الفتيان والرجال فتمعن فى الدلال وتسرف فى إبداء زينتها ، وليس أحب إلى نفسها من أن ترى ما يفعل جمالها بقلوب الشباب ! لها عينان هما السحر أو يقصر عنهما السحر ضاحكتان أبداً ، ساطعتان كأنهما نجمتان جريئتان دعجاوان تصوبهما الى القلوب ولا تستردهما من حياء كما تفعل النساء ، كأنما تريد أن تجهز على صرعاها ! وما استطاع فتى لمح تينك العينين مرة أن ينسى سحرهما أبدا . هذا الى جبين سقيل وخد أسيل يبدو مشبعاً بالحمرة مع ما يعسه من سفع الشمس ، وفم يرف كما ترف الزهرة فى ندى الصبح تحتاج عليه البسمات ، وتتقسم بينه وبين عينيها النظرات ، وأنف لطيف دقيق إذا تغير قيد شعرة عما هو عليه فلن يوائم تلك القسمات وهى لا تقنع بما أسبغته عليها يد الطبيعة من حسن فتراها تمعن فى الزينة ، وتبالغ فى التبرج ؛ فقدماها الصغيرتان ناعلتان أبدا ؛ وترى نعلها الأصفر الدقيق نظيفاً كأنه لم يمس الأرض ، ومن نطاقها الأحمر المحبوك حول خصرها تتدلى على مرطها الأسود اللامع خيوط مختلفة الطول مشكلة الألوان تنتهى بذلاذل تعلو وتهبط وتتمايل يمنة ويسرة كلما خطت خطوة أو حانت منها التفاتة . وفى ضفيرتها شريطان ساطعا اللون معقودان ولكنهما لا يستقران على ردفها فى موضع ؛ أما شنوفها وأقراطها وخواتمها وخلخالها فلم تقتنع فى اقتنائها بما دون الفضة . وتراها فى مشيتها كالظبية تبث فى الحقول من حولها السحر والجمال ، فاذا تغنت أو ضحكت أطلقت نفسها على سجيتها فلأنت حدة نبراتها وحلاوة صوتها نشوة وفتنة ، وحملك فيض مرحها على مشاركتها ولو كنت ضائقا بهمك

ولكن الفتيان والرجال لا يذكرونها إلا فى تغامز وهمس ، وتراهم إذا جاء حديثها يتبادلون نظرات الخبث ، ويتناولون عبارات اللهو ، وترى كلا منهم وقد تشكلت أساريره بما يجول فى نفسه واختلجت عيناه بما نمى إليه أخيراً من أمرها

* * *

راح شيخ العرب يقص على من حديث ابراهيم وأنا مصغ يسمعى اليه ، مقبل بحواسى عليه قال :

— أرأيت ما كان من ثورته غداة كانت سكينة هنا تسر الى عز بعض حديثها ؟

— رأيت ذلك فحيرنى وأزعجنى

— إذاً لو علمت ما كان بينه وبين زوجها شبل وما دب بينهما من شحناء وبغضاء ...

قال ذلك وأطرق كمن يثقل رأسه هم فاستفهمته ما حدث ، فأخبرنى أن الرجلين يتربص كلاهما بالآخر

يريد أن يقتله ، وأن الأمر وصل بينهما الى مثل ذلك التحرج والعدوان ، فقد حدث أن لطم إبراهيم زوج أخته أمام جماعة الفلاحين من أقرانه فى عزبة على بك ثم راح يكيل له السباب المقذع الذى يستفز الجبان ، ثم اختفت من غنم شبل عشر نعجات ، ووجدت إحدى بقرتيه ميتة والأخرى بين الموت والحياة ؛ والناس جميعاً موقنون أنه ما فعل هذا غير ابراهيم بعد أن تهامس أهل العزبة بما شاع عن سيرة أخته ، وهو مصمم إذا أراد ، جرىء إذا انتوى ، عات إذا نفذ ، ليس فى العزبة كلها من يخرج على سطوة على بك ويستخف بسلطانه سواه . على أنه اليوم لا يرى شبلاً كفأ لخصومته ، بل إنه لينظر إلى من هو أعظم وأسمى ، ينظر الى على بك نفسه ويرى فيه غريمه وعدوه الألد . أو ليس يعطف اليوم على شبل العطف كله ، ويمده بما له ويعفيه من مشاق الأعمال ؟ وكيف يصبر ابراهيم بعد أن يتبين أن البك إنما يفعل ذلك كله من أجل سكينة وعينى سكينة ؟ كيف يطيق ابراهيم أن يلقى الناس ويحتفظ بينهم بمكانته وهو اليوم تتبعه الفضيحة أينما سار ، ويأتيه العار من كل مكان ، ويلقاه الخزى أنى حل

* * *

كان على بك من أرباب الضياع ، يتحدث الناس بما كان لجده من ثراء وجاه ؛ ولقد تقاسم بنوه من بعده هذا الثراء الضخم وذلك الجاه العريض فانتهى إلى على بك بن حسن بك منه جانب كبير ؛ ولكن أخلاق جده انتهت إليه كاملة ، فهو شديد الكبرياء عظيم الأنفة غليظ القلب ، ينظر إلى أهل عزبته جميعاً نظرته إلى عبيده وإمائه لا يهمه إلا أن يشبع بطنه ويملأ جيوبه ، عاش من حوله أو هلكوا ! بخيل شديد الحرص ، يحاسب ناظر زراعته على المليم حسابه إياه على الجنيه ، لا يذكر حسنة ولا ينسى إساءة ، يقيم نفوذه على البطش والجور ، عسوف عنوف لا تأخذه رأفة بأحد ، لأنه يرى الرأفة ضعفاً لا يليق بمثله ؛ لا يعدل نبوغه فى جمع المال من شتى الوجوه إلا مهارته فى إحكام الدسائس وتدبير وسائل الكيد ؛ على أنه فى اشباع شهواته قد فات كل نبوغ وتعدى كل حد ، حتى ليتلاشى تلقاء تلك الناحية فيه كل نبوغ آخر ! وقل فى الناس من تكون له مثل تلك القوة البهيمية التى لا تعرف كلالاً ولا تحس ملالا

رأى وهو على حماره إلى عزبته فى ثلاثة من رجاله ذات صباح امرأة فى ظل شجرة ، فكأنما تلاشت كبرياؤه بغتة . سأل رجاله فى غير ترفع وفى غير حياء : من تكون تلك المرأة ؟ فأخبروه أنها سكينة الأعرابية فعجب كيف تكون فى عزبته ولا يعلم بها ! فأفهموه أنها زوجة «النفر» الجديد شبل ، فسرت فى وجهه أولاً أمارات الارتياح ، ثم علم أنها أخت ابراهيم الأعرابى فامتعض وانقبضت أساريره ؛ وبداله ، فاستعاد كبرياءه وراح يعلن سخطه على وجود امرأة فى طريقه دون حياء كأنما هان على الناس أمره ، واعتذر إليه أعوانه بشتى المعاذير فهى أعرابية جاهلة ، وهى لا تعرف أن هذا طريق البك إلى مزارعه ، وهى لن تعود إلى ذلك بعد اليوم ، إلى غير ذلك من وجوه الاعتذار

على أن البك وإن تظاهر بالعزة فى الناس ، تهون عليه نفسه فيما بينه وبين نفسه . وسرعان ما تهافت على سكينة حتى صارت شغله الشاغل ، وسرعان ما صار لوجهها الحظوة والمال ؛ وقد عرفت الأعرابية الماكرة ناحية الضعف فى هذا المتعاظم

المتجبر فأساست إباءه وحطت من كبريائه ، تدل عليه متى شاءت فان يستطيع قبض كفه عنها ، وتمكر به فلن يقوى على إرغامها ، وهى تتقرب إليه مرة وتنفر منه مرة فلا تجد فى الحالتين إلا الخضوع والاستسلام من ذلك الملك العانى ! وأى خضوع هذا الذى يجعله على الرغم من مكانته لا يتورع أن يتردد على كوخها بنفسه متخذاً من الليل ستاراً ؛ ذلك الكوخ الذى اختاره لها بالقرب من مسكنه غير عابىء بما يقول الناس أو بما يتقولون

أما زوجها فقد تغافل عن هذا كله وتجاهله ، وحسبه ما يصيب من وراء ذلك من مال أو حظوة عند سيده ! وما كان هذا الضعيف ليملأ عينى زوجته المتبرجة الشرود . فهان عليها أمره منذ أن تزوجها ؛ وما مهد له سبيل هذا الزواج سوى صداقته لابراهيم منذ حداثتهما . ولقد رضيت به كارهة مرغمة ، ثم ما لبثت أن طرحته وراء ظهرها فلم ترع له حقاً أو قل لم تحس له وجوداً . ولقد ظلمه ابراهيم حقاً فيما انتقم به منه فما هو إلا أداة تافهة حقيرة ، لا يملك من أمره ولا من أمر زوجه شيئاً

* * *

أفاض شيخ العرب واسترسل ، وما كان يعنينى إلا ابراهيم ، وقد عرفت الآن سر غضبه ، وبواعث ثورته . أيستطيع وهو فرد فقير أن يقاوم الملك وله من الأعوان والجاه ما يقابل به بلده بأجمعها ؟ ورأى شيخ العرب فى حديثى إشفاقاً عليه ، وفى عينى لهفة لسماع بقية خبره فقال : كثيراً ما طلبت إليه أن يأخذ حذره ، وألا يطلق لسانه بما لا يليق ، وعلى الأخص لأن خصمه ماضى البطش ، سريع الانتقام ، فظيع الغدر ، لا ينجو من كيده عدو ، ولا يفر من حبائله مسىء ، ولو كان الشيطان نفسه ! ولكنه كان لا يفتأ يسب ويتوعد معلناً فى حدة أن الموت خير عنده من تحمل هذا العار ، وأنه إن تهاون فى عرضه فأولى به أن يلبس ملابس النساء ، ويتخلق بأخلاق النساء ؛ وكان يقسم لى أنه سوف يبدأ بذبحها كما تذبح الشاة ما واتته الفرصة لذلك ، ثم ينتقم من عشيقها أبشع انتقام مهما كانت سطوته ! يقول ذلك وصدره يعلو ويهبط كما يعلو موج الترعة ويهبط ، والعرق يتصبب من جبينه ، والشر يلمع فى مقلتيه ، وأصابع يده مشدودة كأنما يريد أن ينشبها فى فريسة ماثلة ! وكان ينفر منا إذا زجرناه قائلا إنه لا يهاب الموت بل إنه ليتمناه ليريحه مما هو فيه ! وحتى عز ، عز نفسها ما كانت تجد سبيلا إلى قلبه ، وكان ينتهرها ويطلب إليها فى صرامة ألا تخوض فى هذا الأمر ، وإلا فلن تكون له بها صلة . وسكت شيخ العرب برهة ، ثم استأنف حديثه قائلا : « تغير المسكين وكأنما حل محله شخص آخر ، فهو لا يهنأ له طعام ولا يستقر جنبه فى مضجع ، وأصاب غمامه الهزال لولا ما تحاول عز من عناية بها . يحسب كل نظرة موجهة إليه إذا سار ، ويخال كل بسمة سخرية منه ، ويظن كل همس يدور حوله ، ولذلك تراه لا يغشى مجالس الرجال إلا نفرا من خاصائه يستعين بهم فيما يدبر من أمور ! واليوم تكثر حوادث الحريق وتسميم الماشية فى العزبة ، فأشفق على هذا البائس ولكنى لا أجد حيلة فى تسكينه أو صرفه عن وجهته ، وليس يكربنى ما أحاذره عليه بقدر ما يكربنى ما صارت إليه ابنتى من حال منكرة ؛ فقد غاضت بشاشتها ، وتعشى السقم فى جسمها القوى ، حتى بت أخشى أن أفقدها »

ثم خفت صوت الرجل ، ودنا منى ، وقال

فهمس : « أرأيت كيف يكون مبعث البلوى هؤلاء السادة ، ثم يتهموننا نحن الأعراب بأننا أصل الحوادث ، والحكومة تأخذ بما يقولون ولا تفكر أن تبحث أسباب تلك الحوادث ، أو تتبين بواعثها الخفية . . . . »

وتوقف محدثى على نداء ابنه راغب :

— أبتاه !

— ماذا يا ولد ؟

— حنظل وعز وأمى والغنمات ... هالك ... هالك إيش ها تريد يا بوى ؟

— ما أبغى شىء ياولد ... اسكت

ولما وصلت عز وأمها وأخوها من «سرحتهم» إلى باب الحظيرة ، أشار شيخ العرب إلى ابنته فجاءت مسرعة وحيت فى طلاقة وهدوء ، وعلى وجهها مسحة من همها الدفين ، وقال لها أبوها : « إكبرى النار يا بنت ، وهات الشاى » ، وأعطيناها بعض ما لدينا من الشاى فذهبت لعمله ، ثم جاءت أمها فحيت وجلست ، وجلس حنظل غير بعيد منا وفى يده مغزله وصوفه

وجاءت عز بالشاى ، فتنهدت أمها وهى تحدجها حدج الاشفاق ، وقال لها أبوها وهو يخفى همه : « دبرى الشاى يا عز » ، وتناول كل منا من يدها قدحاً من تلك الأقداح الزجاجية ، ورحنا نحتسى الشاى فى صمت

وكانت الشمس قد لألأت صفحة الماء بأشعتها القوية التى كانت تبدو لأعيننا أعظم ضوء وأشد وهجاً ونحن فى ظل الشجرة ، حتى لقد كان يصعب على بعضنا أن يديم النظر لحظة إلى الماء ، وكان الماء يومئذ مثقلاً بذلك الغرين الذى يفهق به النهر الحبيب فى زمن فيضانه ، فكانت صفحة الترعة كسحنة الحبشى ، بيد أنها كانت على الرغم من ذلك تعكس أشعة الشمس ، فيشتد بريقها حتى يخطف الأبصار

وانتبهنا على حين غفلة إلى الكلاب تجرى نابحة نحو الترعة ، فاتجهت أبصارنا جميعاً إليها ، ولكننا لم نر غير الماء ينساب مسرعاً دافقاً ، وما هى إلا لحظة حتى رأينا حنظل يجرى نحو الضفة ومن ورائه راغب ، وهما يشيران إلى الماء ، وتبعتهما عز وهى تؤيدهما بقولها : إنها جثة آدمى وليست جيفة حيوان . وأسرعت إليهم أمهم فوقفت معهم ، ولكنها كانت تخالفهم قائلة : إنها جيفة حمار . وأمعنا النظر فى الماء فرأينا شيئاً سابحا ، يتحرك حركة غريبة ، هى حركة تدفق الموج ، ولم نتبينه أول الأمر إذ لم يكن يطفو منه فوق الماء إلا جزء يسير ؛ ولكننا استطعنا أن نرى كتفاً آدمية عارية وجزءاً من الذراع ، ثم ما لبث الرأس أن تبدى برهة ولكنه عاد فاختفى ، ثم برز الوجه وبرز إلا قليلا والتيار يحمل الغريق مسرعا فيبدو للعين من أجزاء جسمه مايبدو حسب حركة الموج . ولقد أحزننا ذلك المنظر وروعنا ، ورأينا بعض الناس على الضفة الأخرى ، وكان الغريق أقرب إليها منا يرفعون أصابعهم بالتشهد ، كما رأينا بعض الفلاحين يتجمعون ويجرون على الشط قبالة الجثة ؛ وكأنما جمد شيخ العرب فى مكانه فلم يذهب إلى حيث كانت تقف زوجه وأولاده . وشمل الجو كله من حولنا رهبة شديدة وكآبة قابضة ، والغريق يجرى به الموج فيدخل فى ظل بعض الحشائش ، ثم يخرج منها إلى ضوء الشمس

ثم رأينا خمسة من الرجال يأتون مسرعين على الشط الذى كنا نقف عليه ، فساروا يتبعون الجثة

ريثما تجنح ، وفى وجوههم حسرة واهتمام شديد وكانوا يصيحون بقولهم : « البر البر ياطالب الدفن » ومن معتقداتهم أن الغريق يجنح إلى البر إذا صاح الأحياء أمامه بتلك العبارة

وليت شعرى هل استمع الغريق إليهم حقاً ؟ فلقد أبصرناه يجنح إلى الشاطئ قليلاً قليلاً حتى أوشك أن يلامسه غير بعيد منا ، ولكنى لم ألبث أن تبينت سير جنوحه ، فان انثناء الترعة فى ذلك المكان جعل الموج يرتد من الشاطئ الآخر إلى شاطئنا فوجه إليه الغريق شيئاً فشيئاً

وذهبنا وذهبت امرأة العرب وابناها لرؤية الغريق . أما شيخ العرب فلبث فى مكانه برهة ، ثم قام فتحامل على نفسه وسار يجر رجليه ليلحق بنا ، وهناك رأيناه وقد أخرجه الرجال ممدداً على الشاطئ وقد تمزقت ملابسه وتورم جسده : رأينا ابراهيم جثة هامدة ولاحظنا على فمه ضربة وفى عنقه أثر شجار عنيف ؛ وتجلد الرجال فصنعوا من عصيهم محفة ألقوه عليها وخلعوا عليه بعض ملابسهم ووقفنا نحن مشدوهين أمام هذا المنظر وفينا من لم يستطع أن يحبس دمعه على الأخص لرأى ذلك الشيخ الذى أذهله الرعب فتركه كالأصم أو المجنون

وسرنا نحو الشجرة فرأينا عزيزة وأخواتها فى انتظار النبأ فما كان لهن أن يرين غريقاً ربما تعرى جسده . وهل كانت تستطيع عزيزة أن ترى هذا الغريق ولو كان على جسده من الثياب أطولها وأعرضها ؟ هل كانت تستطيع أن ترى خطيبها وحبيب روحها ممدداً على الشاطئ جثة هامدة متورمة ؟ هل كانت تستطيع أن ترى ابراهيم وأصحابه من حوله يمسحون دموعهم بأكفهم وهم من أشداء الرجال ؟

لبثت تنتظر وهى لاتدرى من الغريق ، ولكن لم يطل انتظارها ، فقد عاد راغب مسرعاً وكأنه يحمل إليها نبأ سارا ؛ وقال فى سذاجة الأطفال وبراءتهم : « ياعز ياأختى إنه ابراهيم أخو سكينة »

صرخت الفتاة مذعورة للنبأ الفاجع ، ولكنها حتى فى ذلك الموقف تداركت وجودنا فقطعت صرختها وهرولت نحو الكوخ ؛ وهناك أبصرناها تسقط لدى الباب مغشياً عليها ، فجرينا إليها ولكن عبثاً حاولنا أن نفعل شيئا ، وأخذنا فى أمرها من الارتباك ما يأخذ الرجال عادة فى مثل ذلك الموقف . بيد أننا أسرعنا فأرسلنا من أحضر أباها وأمها ، فجلست الأم تدلك يديها ورجليها وقد ألقت رأسها على ركبتيها ، وأبعدنا نحن الرجل قسراً عن الكوخ وأجلسناه بيننا تحت الشجرة وبه ضعف ما بابنته ، ولم يفق حتى أفاقت من غاشيتها ، وكأنما عقد اليأس لسانها أو ذهب الهلع بلبها فلم تقل شيئاً ، وكذلك انعقد لسان أبيها فلم يتحرك وهو بقاب كفيه فى جزع لن يصفه كلام

وجلسنا نحن حوله وكأننا قوم اجتمعوا فى مأتم فلا نتساءل إلا بالألحاظ ولا نتجاوب إلا بالايماء . ومر الرجال بعد لحظة يحملون غريقهم على محفتهم التى أعدوها ، يريدون أن يسرعوا بجثته حتى يخفوا الحادث

قضينا يوماً كئيباً ثقيلاً لم نستطع أن نكمله فعدنا الى القرية فى عصره ؛ وانقضى الأسبوع وحل موعد الذهاب الى الترعة ، ولكننا لم نذهب فقد علمنا قبل ذلك الموعد بليلة أنه قد ألقى القبض على شيخ العرب فقد جاء ذكره فى قضية مقتل على بك فاستدعى لسماع أقواله إذ قد حامت حوله بعض الشبهات

الطفيف